

# هوس الهجرة إلى بلدان العالم الأول

من أبرز العوامل التي ساهمت في بروز فئة المراهقة، تنامي مسألتي إلزامية التعليم وقوانين العمل التي تمنع تشغيل من هم دون سن الـ ١٤ عاماً. هذان العاملان ساعدا على بروز فئة عمرية جديدة امتدّت معها فترة الطفولة، خصوصاً أن إلزامية التعليم أطالت فترة الالتحاق بالمدرسة، مما يعني أن الأولاد يبقون لفترة أطول غير مستقلين. واليوم تحدد "اليونيسيف" عمر الطفولة من صفر إلى 18 سنة، ويعرف المراهق بأنه ناضج فيزيولوجياً وجنسياً، ولكنه غير مؤهل نفسياً واجتماعياً ليتحمل مسؤولية بناء أسرة.

وإذا كان مفهوم الطفولة مفهوماً حديثاً، كما الاهتمام بها، فإن مفهوم المراهقة، لا يقل حداثة عنه. وإذا كانت الطفولة عرفت، خصوصاً منذ أوائل القرن العشرين، مراحل وأطوار عدة، فإن المراهقة في ذاتها لم تكن موجودة من قبل كفتة عمرية منفصلة وذات خصوصيات. والملاحظ أن المراهقة، التي وجدت دائماً كمرحلة بيولوجية -عمرية، لكن ليس كمفهوم، ليست واحدة في مدتها ولا في مكانتها في المجتمع. فلا يمكن مقارنة حياة مراهقي اليوم بما عاشته الأجيال السابقة، ولا مراهقة طفل عامل مع تلميذ مواظب، أو مراهق ريفي مع آخر مدني. فليس هناك مراهقة واحدة، بل "مراهقات" عدة. وهذا من أهم مميزات المراهقة التي قد لا تؤخذ دائماً في الاعتبار. فما هي السمات الخاصة بالمراهقين اللبنانيين اليوم وبم تختلف مراهقتهم عن مراهقة أهلهم؟

تلخص الدكتورة منى فياض، عضو الفريق الوطني اللبناني والفريق الإقليمي لتقرير "الفتاة العربية المراهقة: الواقع والآفاق"، الصادر عن مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث "كوثر"، أبرز توجهات مراهقي لبنان، التي استطاعت تبينها عبر دراسة ميدانية ضمّنتها أكثر من 30 مقابلة مع مراهقين ومراهقات من مختلف المناطق اللبنانية. تقول فياض "اليوم نحن لا نشعر أن هناك أزمات بين الأهل والأولاد، بل هناك عقلنة للسلوك. ويجمع جيل الآباء، على وجود فروقات جمة بينهم وبين المراهقين الجدد، فهؤلاء أكثر براغماتية وأكثر انهماكاً في تطلعاتهم المستقبلية من أجل تأمين العمل الملائم والمتماشي مع دراساتهم، التي

غالباً ما يحتفظ المرء بذكريات خاصة عن مراهقته، فهي مرحلة مميزة في ذاكرتنا الشخصية، نسترجعها دائماً بضحكة وغصة، بفرح وحزن... نستعيد معها شقاوتنا، أوهامنا، أمانينا، أحلامنا، انكساراتنا وكيفية نظرنا إلى الحياة. إنها مرحلة غنية بالانفعالات والتحويلات والتقلبات، يحكمها مبدأ "لم أعد طفلاً ولكن لم أصبح راشداً تماماً". لكن هذه المرحلة تختلف مقاربتها من جيل إلى جيل بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية. فالיום تختلف ظروف عيش المراهق عن الحقب السابقة بفعل تداخل عوامل عدة. فإذا سألت جيل أهلك عن مراهقتهم يسخرون منك، ويقولون على الفور: "عن أية مراهقة تتكلم في أيامنا؟ المراهقة هي صرعة جيلكم... نحن كنا نتقاسم الدراسة مع العمل، حتى تتمكن من العيش والاستمرار". على أيامهم، كانت رائجة فكرة "تكبير" العمر على تذاكر الهوية كي يتمكنوا من الحصول على وظيفة باكراً تساعدهم على العيش. الشباب يتزوجون باكراً، في أوائل العشرين، والفتيات يتحملن مسؤوليات البيت والعائلة في عمر الـ 15 عاماً. وهذا المثل المحلي كان ينطبق على الوضع العام السائد عالمياً، فتاريخياً، لم تكن هناك فترة زمنية طويلة تفصل الطفولة عن سن البلوغ الذي لم يكن بعيداً جداً عن سن الرشد. كانت الطفولة تمر بمرحلة تهيئة للعمل من عمر الـ 7 إلى الـ 12 عاماً، ليندمج بعدها الولد في عالم البلوغ. لكن في أواسط القرن الماضي، بدأت تبرز فئة المراهقة مع خصوصيات تتسم بها في السلوك واللباس والميل إلى الثورة والرفض. وأصبح العالم يتكلم عن "الأزمات" التي تمر بها المراهقة. وما ساعد على بروز خصوصية هذه المرحلة العمرية، في التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي طرأت عالمياً، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية وظهور مجتمعات النفط وتعميم فكرة مجتمعات الرفاه أكثر وأكثر، عبر انتشار الصناعة والتغيرات الديموغرافية والتقدم التقني وتعديل مستويات الحياة والانتشار الإلكتروني والكمبيوتر ووسائل الاتصال الجماهيري من تلفزيون، وإذاعات وسينما...

## الاهتمام بالجسد

يولي المراهق شؤونه الخاصة اهتماما يتناسب وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية. وفي هذا الإطار سجّلت فياض اهتماما كبيرا لدى المراهقين، ولا سيما الفتيات، برشاقة الجسد ولياقته، وذلك عند الفئات والمستويات كلها". وهذه ظاهرة عالمية على ما يبدو تعود إلى شيوع التلفزيون ودور الإعلام والإعلان والتوب موديلز". وهذه أبرز مظاهر العولمة المسيطرة والناجحة. كما تبين أن "الهمبرغر والبيتزا" والأطعمة الجاهزة من مظاهر العولمة الأخرى، هذا بالإضافة إلى الطعام الإكزوتيكي الآسيوي في بعض الأوساط المتوسطة.

أما عن مدى تعبيرهم عن ذاتهم، فتلاحظ فياض أن المراهقين الذين ينظرون إلى أنفسهم بشكل نقدي ومحايدين ينتمون إلى الفئات الاجتماعية الأعلى والمتقنة ودون تمييز جندي، بينما تبرز فكرة رفض الاختلاف لدى الفئات الفقيرة، وخصوصا عند الفتيات منهن، فهن يبحثن عن التمثّل والتشبه بالآخرين. كما أن إجابتهن تكون مختصرة وفيها الكثير من الاقتضاب. وذلك يعود على الأرجح إلى عدم اعتيادهن التعبير الحرّ عن أنفسهن دون رقابة وإلى عدم شيوع عادة الجدل والنقاش التي تعرفها الأسر المثقفة أو ذات المستوى الاجتماعي الأعلى.

## جيل براغماتي عملي

عبر الاستطلاعات والملاحظات والدراسة كيف يمكن أن نختصر وصف جيل المراهقة في لبنان اليوم؟ فياض تصف هذا الجيل أنه مهتم بحاله، براغماتي، لا أوهام لديه، يفتقر إلى الأيدولوجيا، يتحكم فيه هوس تحقيق سيرة ذاتية تلائم طلب السوق. يرى أهله عاجزين عن التغيير. ضمنا هو يتهمهم أنهم سبب الحرب، ويعتبرهم فاشلين، ولكنه لا يقول لهم ذلك. إنه يتطلع بحسب المستوى الاجتماعي، إلى توفير كل متطلبات الذهاب إلى العالم الأول حيث يطمح أن يعيش حياته دون أن تسحقه جزمة الديكتاتورية.

أما الباقون في لبنان، المتعلمون، فيطمحون إلى العيش بطريقة معقولة، لديهم هم وطني ولكن لديهم مرارة، ولا سيما في ما يتعلق بالوضع الفلسطيني. في حين أن المراهق الآخر، الأقل تعليما ومعرفة، فيصبح مسحوقا في حياته اليومية، إذ عمره الفقر ما يبيد يساعده على الحرية. "مطالبه أبسط وتتلخص في تأمين عمل، وأن لا يتعب كثيرا، وهو يحمل هموما كثيرة. ويبقى الاقتناع سلاح الفقير في مواجهة عالم الاستهلاك.

رولا مبخاليل/لبنان جويلية/يوليو 2005

تتحو هي الأخرى لأن تصيح أطول وأكثر تعقيدا. كذلك يجمع الكثير من جيل الآباء على الاعتقاد بأنهم في عمر أولادهم كانوا قد قرؤوا فلاسفة وأدباء كبار. بينما من الملاحظ أن الجيل الجديد ينحو إلى أن يكون أكثر علمانية وأكثر تعلقاً بأنماط الاتصال الحديثة.

وتشير الدكتورة منى فياض إلى الاختلاف الجذري بين حقبة الجيل السابق التي اتسمت بطابع إيديولوجي نضالي وعرفت "بجيوحة اقتصادية" اختفت معالمها الآن. فالضائقة الاقتصادية والبطالة تلفان العالم كله، والإيديولوجيات انتهت إلى أجل غير معلوم، وثمة من ينظر حتى إلى "انتهاء التاريخ" بمعنى انتهاء الصراع. هذا بالإضافة إلى الإعلام الفائض الحاصل على مستوى الكرة والذي يجعل مشاعر التأزم في عالمنا العربي أكثر حدة، طبعاً من دون أن ننسى الأفق المسدود بسبب الأزمة الاقتصادية وأزمة الهوية (القضية الفلسطينية والعراق)... والشعور بالدونية وتطلب الهجرة وترك البلاد".

أما المثل العليا فهي ليست وطنية. وتذكر فياض في هذا الصدد أنه "أثناء عملنا مع المراهقين في إطار إعداد تقرير "المراهقة العربية" لم يذكر أحد قائداً أو بطلاً أو ما شابه سوى ذكرى عبد الناصر عند مراهق لبناني وأحيانا أسامة بن لادن، وخصوصاً في اليمن". لكن أزمة المثل العليا هي أزمة كبيرة، فأين هي المثل العالمية التي كانت تحرك الشباب، مثل تشي غيفارا وجمال عبد الناصر؟ كذلك أين التحركات والثورة الطلابية، على غرار الثورة الطلابية عام 1968 ؟

## جيل لا يشعر بالنقمة

ومع عرض خلاصات التقرير الميداني، قد يبدي البعض استغرابهم، لغياب مشاعر الغضب عند المراهقين الحاليين، ولا سيما أن الفكرة التقليدية السائدة عن المراهقة في سياقها الغربي كمرحلة تتسم بالرفض والغضب. "هناك من اعتبر أن الجيل الجديد لا يشعر بالنقمة، إنما بالإحباط الذي هو سيد الموقف، وهناك من قال إن المراهق اللبناني "داير ظهره للوطن وينظر إلى الخارج". كما شددوا على ملاحظتهم المتمثلة في بروز تمييز واضح ضد الفتاة في مسألة الحرية الشخصية. والأبرز غياب العلاقة بالسياسة. ثمة إحساس بالفشل التام على المستوى السياسي. في المقابل يبدو المراهق اللبناني وكأنه يعاني ضيقاً أو كأنه غير معني. لكن العلاقة بالأهل ذات نوعية منخفضة عند الشباب اللبناني، وثمة رغبة في ترك الأسرة والاستقلال بالسكن، ولو أن التعبير عن ذلك يتم في منتهى الهدوء وبحسب الوضع الاجتماعي.

ولقد عبّر الجيل الشاب عن وجود ثقافة جديدة عند المراهق والشاب اللبناني محورها: الهجرة والبطالة والشعور بالإحباط والفشل وأحلام ثقيلة وتصور غامض للمستقبل.